الفصل الخامس

الشعر السياسى

أومأنا – فيما سبق – إلى جملة من المعانى كان أبرزها أن قضية الخلافة نظرا وتطبيقا قد أفضت إلى قيام وجهات نظر سياسية مختلفة حول شكل الحكومة الاسلامية : كيف تكون؟ وفى أى البيوت ينبغى أن توجد؟ ومالبثت وجهات النظر أن تحولت إلى ما يشبه الأحزاب السياسية، كل يحاول تأكيد موقفه بشىء من الحجج العقلية، وبعض من المعانى الدينية التى تثبت أحقيته بالخلافة دون سواه، فكان الشيعة يتكئون إلى قرابة على رضى الله عنه من الرسول ﷺ، ثم صحبته الحميمة له، بالإضافة إلى ما كان يتحلى به الإمام من علم وتقوى وورع، أما الخوارج فكانوا ينادون برد الأمر إلى جماعة المسلمين تختار له الأكفأ، اعتمادا على النصوص الدينية الصريحة فى التسوية بين المسلمين، وكان أضعف المواقف فى هذا الصدد موقف الأمويين، إذ لم تكن لهم تلك القرابة الوثيقة من الرسول مثل « على » وأولاده، وليس لمعظمهم ذلك التحنث الدينى الذى اشترطه الخوارج فيمن يتولى أمر المسلمين، ومن المقطوع به أن بنى أمية كانوا يحسون بهذا الضعف فى موقفهم، فكانوا يوحون إلى الشعراء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن يقدموا صورتهم إلى الناس باعتبارهم حماة الدين، الجامعين لكلمة المسلمين، المختارين من قبل العناية الالهية للذود عن حياض الإسلام، ومن ثم فليس للخلافة عنهم تحويل، أما عند البحث فى مسألة الأصول فقدكان فريقهم يعتمد على ما كان لهم فى الجاهلية من مكانة، إذ كان اللواء لبنى عبد شمس فى مقابل استئثار بنى هاشم بسقاية الحجيج، على أن مسألة الأصول هذه لم تكن لها أهمية إلا عند بداية الصراع، أما فيما بعد فقد كان جل احتكام بنى أمية إلى سياسة الأمر الواقع، وهى سياسة كانت فى صالحهم إلى حد كبير.

أما الشيعة فكانوا يعتمدون على برهان عقلى تؤازره جملة من التأويلات النصية، فهم – من الوجهة العقلية – يرون أن المسلمين لم يتركوا أمر الخلافة لقريش بعد الخلاف الشهير فى سقيفة بنى ساعدة إلّا لمكانة قريش من الرسول ﷺ، فإذا كانت العرب قد عرفت لقريش فضلها آنذاك، فما أحرى قريشا أن تكل هذا الأمر بدورها إلى أقربها من الرسول وهو «على» وأولاده من بعده، وراحوا يعضدون هذا ببعض النصوص ينقلونها ويفسرونها انطلاقا من بعض أقانيم مذهبهم كوجوب الإمامة وأنها ليست من المصالح العامة، بل هى أساس الدين وقاعدة الإسلام، وكالرجعة، والتقية، وما إليها مما أفاض المؤرخون فى ذكره، وما يمكن أن نعود فى

تفصيله إلى أقرب الموارد ممثلا فى مقدمة ابن خلدون[١]، وعلى كثرة توزع فرقهم ما بين اثنى عشرية واسماعيلية وكيسانية وزيدية، فإنهم جميعا يتفقون على أن الإمامة فى على وأبنائه من بعده، وأن استيلاء بنى أمية عليها لايعطيهم الحق فى الاستقرار عليها أو الاستمرار فيها، وهكذا توالت ثوراتهم على الحكم الأموى، صريحة حينا، ومستترة بشعارات أخرى فى أكثر الأحيان.

وإذا كان الزبيريون - أتباع عبد الله بن الزبير - قد وجدوا بعض أسس الاحتجاج فيما رأوه من أن الخلافة حق لقريش على إطلاقها، يختار له الأكفأ والأصلح، وليس أصلح - فى نظرهم - من عبد الله بن الزبير ، وساعدتهم على تحقيق بعض مطالبهم ظروف سياسية مختلفة، حتى استجابت لهم أصقاع كالحجاز والعراق واليمن ومصر والشام ماعدا الأردن، وآزرتهم قيس ومضر ونزار، فإن نفس هذه الظروف مالبثت أن انقلبت عليهم حين استعاد المروانيون سلاح بنى أمية المشهور فى تأليف القلوب بالهبات والأموال واصطناع القبائل بالترغيب حينا، والترهيب حينا آخر، حتى كانت النهاية المأساوية لهذا الحزب الذى لم يعمر طويلا، وذلك فى موقعة مرج راهط (٦٤ - ٦٥ هـ) وكان على رأس جيش الزبيريين الضحاك بن قيس، كما كان على رأس جيش بنى أمية مروان بن الحكم، واستمر القتال بين الفريقين فى هذه الموقعة عشرين يوما، حتى انهزم الزبيريون، وقتل الضحاك، ووقف مروان وقد بويع بالخلافة منتشيا بنصره، قائلا:

لما رأيْتُ الأمر أمرا نَهْبَا ... سيّرتُ غسان لهم وكَلْبَا
لا يأخذون المُلْك إلا غصبا ... وإن دنتْ قيْس فُقْل لاقُرْبا

ومن تتمة الصورة أن نشير إلى أن عبد الملك بن مروان بعد أن تولّى خلفا لأبيه بعث بالحجاج فحاصر مكة ماينيف على ثمانية أشهر، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقبض على ابن الزبير وصلبه سنة ٧٣ هـ[٢].

وعلى النقيض من الأحزاب الثلاثة الآنفة كان الخوارج، الذين لم يتذرعوا فى تقنينهم لقضية الخلافة بأى حق سوى الكفاءة التى تتحقق بخصال مردها إلى العلم والعدل والزهد، دون اشتراط أن يكون من يتولاها قرشيا كما رأى الزبيريون، أو هاشميا كما رأى الشيعة، أو من بنى أمية كما ادعى الأمويون، أما كيف يتم اختيار ذلك الذى تتوفر فيه تلك الخصال فعن طريق الانتخاب المطلق، فإذا جار بعد ذلك أو خان وجب عزله، والدين - من ثمة - عقيدة وعمل،

---

(١) انظر المقدمة بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى - ص ٥٢٧ وما بعدها

(٢) انظر : تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الرابعة - دار المعارف - جـ٥ - ص ٥٣٥ وبعدها

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مقدمة واجبات المسلم، على أن المنكر إذا ازدادت جسامته فكان كبيرة كفر صاحبه، وكثيرا ماتأوّلوا من الآيات القرآنية والأحاديث مايدعم وجهة نظرهم ويؤكد مواقفهم ويبرهن على مصداقية دعوتهم.

ويمكن القول إن بداية النهاية بالنسبة للخوارج تواكبت مع بداية النهاية بالنسبة للزبيريين، على الرغم من أن هؤلاء الأخيرين كانوا هم السبب المباشر فى تلك النهاية الأليمة التى حاقت بالخوارج حين كانوا تحت إمرة نافع بن الأزرق، وقد تصدى لهم المهلب بن أبى صفرة بتفويض من عبد الله بن الزبير، حتى حدثت بين الفريقين موقعة عظيمة على مشارف البصرة، وفيها قتل نافع بن الأزرق، وفيها تفرقت - أيضا - جموع الخوارج بددا، و«انكفئوا - بتعبير الطبرى - راجعين مغلولين، مقتولين محروبين مغلوبين» بعد أن كانت أم حكيم - من شواعرهم - تقف لتقول فى زهو :

أَحْمِلُ رأسًا قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مللتُ دَهْنَه وغَسْلَهْ
ألا فتىً يحمل عنّى ثِقَلَهْ[1]؟

* * *

ويعتبر «كثيرّ بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعى» من أشد شعراء العصر الأموى تحمّسا لعلى بن أبى طالب وعترته من آل البيت، وعلى الرغم من أن شهرته كشاعر ارتبطت بقصائده ذات الطابع العذرى الرقيق فإن له شعرا كثيرا فى التشيع والدفاع عن أحقية «على» وأولاده بالخلافة، والاحتجاج لذلك والبرهنة عليه، وقد سلك فى ذلك سبيل الكيسانية أتباع المختار الثقفى الذى نهض بدعوة الشيعة بعد مقتل الحسين سنة ٦١ هـ، والذى كان يرى أن محمد بن الحنفية هو المهدى المنتظر الذى سيعود ليملأ الأرض عدلا بعد جور، وهدى بعد ضلالة، والذى يقيم بجبل «رضوى» مزودًا بضرورات الحياة من عسل وماء - هكذا يقول كثيّر :

ألَا إنّ الأئمة من قريش ولاةَ الحق أربعةٌ سواء
علىّ والثلاثة مِن بنيه هُمُ الأسباط ليس بهم خفاء
فسبْط سِبْط إيمان وبرّ وسِبْط غيّبتْه كربلاء
وسِبْط لا يذوق الموت حتى يقود الخيلَ يتبعها اللواء
تغيّب لا يُرى فيهم زمانًا برَضْوى عنده عسل وماء[2]

---

(١) الطبرى : ٥ / ٦١٣ ومابعدها

(٢) الأغانى - طبعة دار الكتب - جـ٩ - ص١٤، الشعر والشعراء - طبعة دار المعارف ص٥١٧

وواضح أنه لا يعنى بتلك الأبيات غير مبدأ «الرجعة» الذى تقول به الشيعة، كما أنه يقصد بالسبط المقيم برضوى «محمد بن الحنفية».

وكان «كثيّر» يجهر بتشيعه أمام بنى أمية، وقد وقف يمدح عمر بن عبد العزيز فجعل على رأس فضائله أنه حين ولى الخلافة لم يتذرع بسبّ «على» كما كان يصنع أسلافه من خلفاء وأمراء بنى أمية:

وَلِيت فلم تَشْتِمْ عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولم تَقْبل إشارة مُجْرِم
وأظْهرْتَ نور الحق فاشتدّ نُورُه ... على كُلّ لَبْسٍ بارق الحق مُظْلم[1]

وأشد من «كثيّر» تشيعا ودعوة إلى آل البيت واحتجاجا لهم وذودًا عن حقهم، الكميت بن زيد الأسدى، وهو من أشهر شعراء الكوفة المقدمين فى عصره،وقد ولد أيام مقتل الحسين سنة ستين، وتوفى سنة ست وعشرين ومائة فى خلافة مروان بن محمد، وقد قال عنه أبو عبيدة فى إشارة واضحة إلى مكانته : «لو لم يكن لبنى أسد مَنْقَبة غير الكميت لكفاهم»، وقال أبو عكرمة الضبى : «لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ولا للبيان لسان»؛ بل إن بعضهم - كأبى معاذ الهرّاء - قد بالغ فى هذه السبيل حتى جعل من الكميتَ «أشعر الأولين والآخرين»!!

ويتميز الكميت بطاقته الجدلية التى أعانته فى تشيعه لبنى هاشم، حتى قيل إنه كان أول من ناظر فى التشيع مجاهرا بذلك، ويدعم الجاحظ هذه المقولة حين يرى أن الكميت هو الذى فتح للشيعة باب الحجاج بقوله:

فإن هى لم تَصْلُحْ لحىّ سِوَاهُمُ ... فإن ذوى القُرْبى أحق وأوْجَبُ
يقولون لم يُورث ولولا تراثه ... لقد شرِكَتْ فيها بَكِيل وأرْحب[2]

والحق أن الكميت كان صادق الطوية فى هواه لآل البيت، وهو صدق بدا واضحا فيما يعمر شعره فيهم من حرارة العاطفة ودفء المشاعر، حتى لقد ترفع أن يأخذ ثوابا ماديا على مدائحه فيهم، وحكايته مع أبى جعفر محمد بن على مصداق ذلك، إذ دخل عليه فأعطاه ألف دينار وكسوة، فقال له الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه،

---

(١) ديوان كثيّر - ص ٣٣٤.

(٢) بكيل وأرحب: اسمان لقبيلتيْن، ومقولة الجاحظ، ومن قبلها أقوال أبى عبيدة والضبى تجدها فى : شرح الهاشميات لمحمد محمود الرافعى - مطبعة التمدن - مصر - ص١٧-٢٠

ولكنى أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله[١].

وقد ظلت علائق الكميت ببنى أمية يشوبها التوتر والنفور المتبادل نتيجة مديحه لبنى هاشم وهجائه السافر لبنى أمية، حتى توسط له الوسطاء لدى هشام بن عبد الملك فقدم عليه معتذرا نادما، قائلا له : يا أمير المؤمنين غائب آب، ومذنب تاب، محا بالإنابة ذنبه، والتوبة تُذهب الحوبة»، ثم أنشده قصيدته التى مطلعها:

ذكر القلبُ إلْفَه المهجورا وتَلَافَى من الشباب أخيرا
أورثَتْه الحَصَانُ أمُّ هشامٍ حسبًا ثاقبًا ووجها نضيرا
وكساه أبو الخلائف مروان سنىَّ المكارم المأثورا

وكان هشام متكئا فاستوى جالسا، وقال : هكذا فليكن الشعر[٢] ومن يومها اتصلت الحبال بينه وبين بنى أمية حتى توفى فى خلافة مروان بن محمد سنة ست وعشرين ومائة.

ويشفّ شعر الكميت فى آل البيت عن هوى يترقرق عبر الكلمات فتشعر بذوبان الانتماء السياسى فى مزيج من الود الصادق والمحبة الصافية:

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم رهْطِ النبى فإننى بهم ولهمْ أرضَى مرارا وأغضب
خفضْتُ لهم منّى جناحى مودة إلى كَنَفٍ عِطْفاه أهل ومرحب[٣]

ثم يمضى فى الاحتجاج لحبهم والتمحض فى ودهم، مستدلا على ذلك بالكتاب والسنة:

فقُل للذى فى ظل عَمْياء جَوْنةٍ تَرَى الجوْرَ عدْلا أين لا أين تذهب
بأىّ كتابٍ أم بأية سنة ترى حبّهم عارًا علىّ وتَحْسِبُ[٤]

وإذا لم يكن فى الكتاب والسنة ما يجعل من حبهم عارا كما يدّعى خصومهم، فإن فى نصوص كل منهما ما يجعل الخلافة حقا صريحا لهم، وما يجعل استيلاء الأمويين عليها ضربا من الاغتصاب لم يُر له مثيل:

---

(١) السابق : ص ١٩.
(٢) نفسه - ص ١٨.
(٣) يريد: ألنتُ جانبى لهم بالمودة، الكنف: الناحية - والأبيات فى المصدر السابق - ص ٣٧.
(٤) العمياء: الجهالة، الجونة: الفتنة المظلمة -نفسه- ص٣٨.

بِخَاتَمِكُمْ غَصْبًا تجوز أمورهم ... فلم أر غصبا مثله يُتَغَصَّبُ
وجدْنا لكم فى آل حاميمَ آيةً ... تأوّلَها منّا تقىٌّ ومُعْرب
وفي غيرها آيًا وآيًا تتابَعَتْ ... لكم نَصَبٌ فيها لذى الشك مُنْصِب
بحقِّكُمُ أمست قريش تقودُنا ... وبالفذّ منها والرّديفين نُركَبُ[1]

ثم يلجأ الكميت إلى التفنيد العقلى لدعاوى خصوم الهاشميين فى الخلافة، محتجا بأن بنى أمية لم يرثوها عن أب أو أم، فالحق أولا وآخرا لرسول الله ﷺ، وإذا كان هناك من يدلى إليها بأب أو أم فهم الهاشميون، وبخاصة على وأولاده الذين ينتهون إليه من كلا الطريقين:

وقالوا ورِثناها أَبَانا وأُمّنا ... وما وَرَّثَتْهم ذاك أُمّ ولا أبُ
يرَوْن لهم حقّاً على الناس واجبا ... سَفَاهًا وحق الهاشميين أَوْجَبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنة الذى ... به دَانَ شَرْقىٌّ لكم ومُغَرّبُ
فِدًى لك مَورُوثا أبى وأبو أبى ... ونفسى، ونفْسى بعدُ بالناس أَطْيب
بك اجتمعت أنسابُنا بعد فُرقَةٍ ... فنحن بَنُو الإسلام نُدْعى ونُنْسَب
حياتك كانت مجدَنا وسناءنا ... وموتُك جَدْع للعرانين مُوعِبُ
وأنت أمين الله فى الناس كلهم ... علينا وفيها اختار شَرْق ومَغْرب
فبوركت مولودا وبوركت ناشئا ... وبوركت عند الشَّيْب إذ أنت أَشْيَبُ
وبورك قبر أنت فيه وبوركت ... به ولَهُ أهْلٌ لذلك يثرب[2]

وإذا كانت الخلافة لاتصلح لقوم سواهم، فإن ذوى القربى منهم أحق بها وأدنى إليها :

فإنْ هى لم تَصْلُح لقوم سواهُمُ ... فإنَّ ذوى القُربى أحَقُّ وأَقْربُ

وإذا كان السلف من هؤلاء قد غالتهم المنايا التى لاتذر ذاهيبة ولا تُبقى على عظيم فقد تركوا من خلفهم مصابيح هداية وأنجم تقوى تتعلق بها أمانى النفس وتتصل بها حبال الهوى:

---

(١) الخاتم الذى اغتصبه الأمويون: خاتم الخلافة، آل حاميم: السور التى أولها حاميم، والآية المقصودة قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى﴾. والتقى: الذى يلتزم التقية فيسكت، والمعرب: المبين، النصب: العَلَم المنصوب، مُنصب: متعب، الفذ: الفرد، ويريد به معاوية، والرديفين: الاثنين أحدهما يردف الآخر، والمراد بهما من يليانه فى الخلافة من قريش - السابق ص ٤٠.

(٢) ابن آمنة: يعنى رسول الله ﷺ، دان: خضع وأطاع، الجدع: القطع، عرنين الأنف: أول الأنف من تحت الحاجبين، موعب: مستأصل - نفسه ص ٤١ - ٤٢.

وقد غادروا فينا مصابيح أنْجُمًا لَنَا ثِقَةٌ أيان نخْشَى ونَرْهَبُ
أولئك إنْ شطّت بهم غربة النَّوَى أمانيُّ نفْسي والهَوَى حيث يَسْقُبُ[1]

وقد لا يحتاج إلى مزيد تنبيه ماتنفرد به هذه النماذج ومثيلاتها من توهج العاطفة وشبوب المشاعر وتوقد الهوى، وهى على أية حال سمات يتميز بها الشعر الشيعى وتنضح بها جملة القصائد التى رويت، وبخاصة لرواده الأوائل.

ومن ناحية أخرى نرى الطابع الاحتجاجى فى إبداع شعراء الشيعة ينهض بدوره فى التدليل على أن الخلافة حقهم وحدهم، وكان الكميت رائدهم فى هذا المقام، إذ فتح لهم طريق المحاجة، وخاض فى هذا الطريق بشتى البراهين العقلية والنقلية، فأما البراهين العقلية فمن قبيل احتجاجه على بنى أمية بإحدى اثنتين: إن كان النبى ﷺ لا يورث فمعنى ذلك أن الخلافة حق لكل مسلم، فليسوا هم أولى الناس بها، وإن كان يورث، فليس الأمويون - أيضا - هم الورثة، وإنما العلويون هم الورثة؛ لأنهم أقرب الناس إليه. وأما الأدلة النقلية فمن قبيل قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾، وقوله تعالى ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودة فى القربى﴾، حيث يتأولون هذه الآية أو تلك بما يجعلها موائمة للاستدلال على ما يذهبون إليه من تقديم العلويين فى استحقاق الخلافة.

وللشعر السياسى الشيعى سمات أسلوبية تضاف إلى هذا الطابع الاحتجاجى العاطفى الذى اصطبغت به مضامين قصائدهم، ومن هذه السمات الأسلوبية كثرة الاتكاء على الأساليب الإنشائية فى مقارعة الخصوم، وتنويع هذه الأساليب بين الأمر والاستفهام والحث والتوبيخ، ومنها سرد أقوال الخصوم بصيغ مثل: و«قالوا» أو «يقولون»، ثم الانعطاف على هذه الأقاويل بالمناقشة والتفنيد والرد حتى لا يسلم للخصوم من أقاويلهم شىء، ومنها الميل إلى تعابير النواح والتفجع والندب والحسرة كلما كان المقام مقام حديث عن شهدائهم أو تصوير لنكباتهم أو بكاء لآلامهم، وحينئذ تأتى صيغ الندب والحسرة والتفجع لتدعم الملمح الحزين لإبداعهم.

وطبيعى - بعد تعداد كل هذه السمات - أن يختلف شعرهم السياسى عن شعر غيرهم من شعراء الأحزاب السياسية، وبخاصة شعراء الحزب الأموى، فشعر هؤلاء أكثر جنوحا إلى تقرير مظاهر الأبهة والسلطان التى كان يتمتع بها الأمويون، كما أنهم حين يحتجون لايحتجون بما هو مقنع من الأقيسة المنطقية أو النصوص الدامغة من الكتاب والسنة، إذ ليس لهم من هذه أو تلك ماينصر مذهبهم، وإنما تراهم يلتجئون إلى تقرير واقع الحال، والاستناد إلى سياسة الأمر

---

(١) أيان نخشى: حين نخشى، شطت: بعدت، يسقب: يدنو - السابق - ص ٥١.

الواقع، والادعاء بأن بنى أمية، هم الذين جمعوا أواصر الأمة واستقرت بهم الأمور، ولو علم الله فى غيرهم خيرًا لصرف الأمر إليهم. ألا ترى إلى قول الفرزدق فيهم:

وجدنا بنى مروان أوتادَ ديننا ... كما الأرض أوتاد عليها جبالُها
فأنتم لهذا الدين كالقبلة التى ... بها إن يضلّ الناس يُهدى ضلالها[1]

وإذا كان الفرزدق يلمح اجتماع المسلمين على بنى أمية ويعتبرهم «أوتاد الدين» و«قبلة» المسلمين فإن «جريراً» يرى أن أخذ الأمويين بناصية الخلافة إنما هو تعبير عن قضاء الله الذى لا مردّ له، وقدره الذى ليس عنه تحويل:

الله طوّقك الخلافة والهدى ... والله ليس لما قَضَى تبديلُ
إن الخلافة بالذى أَبْلَيْتُمُ ... فيكم، فليس لمُلكها تحويل[2]

بل إنهم ليردون على الشيعة بنفس منطقهم أحيانا، فلئن كان الشيعة يرددون مصطلح «المهدية» ويتذرعون به، فإن شعراء بنى أمية يستخدمون نفس المصطلح ولكن فى سياق آخر، إذ يخلعونه على خلفائهم، ويصفون به حكام بنى أمية.. أليس عجيبا أن يجتمع النقيضان الشهيران جرير والفرزدق على وصف خلفاء بنى أمية بهذا المصطلح، على بعد مابين الشاعرين؟ فإذا حاور جرير صاحبته:

فقلت لها الخليفةَ غير شك ... هو المهدىّ والحكم الرشيد

قاصدا بذلك هشام بن عبد الملك، لم يتورع الفرزدق أن يخلع نفس اللقب على سليمان بن عبد الملك:

ألا تشكرون الله إذْ فَكّ عنكمُ ... أَدَاهِمَ بالمهدى ثُمَّا ثِقَالُها

حتى الأخطل، نراه يلهج بحق بنى أمية بالخلافة، وأن الله اصطفاهم لها، وعصم بهم أمر المسلمين، ثم حين لايجد من مقومات فضلهم إلّا الاعتداد بالحسب والنسب نراه فى نهاية الأمر يكتفى بذلك فى تقرير ماهم من فضل:

تمت جدودُهُمُ والله فَضّلَهُمْ ... وجَدُّ قومٍ سِوَاهُم خامل نَكِدُ
ويوم صِفّينَ والأبصار خاشعة ... أمدّهم إذْ دَعَوْا من ربّهم مَدَدُ
وأنتمُ أهل بيتٍ لا يوازِنُهُمْ ... بيتٌ إذا عُدّتِ الأحساب والعَدَد[3]

(١) ديوان الفرزدق - ص ٦٦.
(٢) ديوان جرير ص ٣٨٠.
(٣) ديوان الأخطل - ص ١٧٢.

ولأن بنى أمية كانوا يحسون بحرج موقفهم من قضية الخلافة وعدم استواء صورتهم فى أعين العامة من الناس، فقد حاولوا بشتى الطرق أن يوحوا إلى شعرائهم بأن يمدحوهم بتلك الصفات التى تزين من أمرهم بالقول مالم يزينه الفعل، فراح الشعراء يسبغون عليهم من سمات الورع والتقوى والعدل والزهد وحسن السياسة مالا يستقيم - أحيانا - مع الواقع. هذا حارثة بن بدر الغُدَانى يقول فى زياد بن أبى سفيان :

ألاَ مَنْ مُبْلغ عنى زيادًا ... فنِعْم أخو الخليفة والأمير
فأنتَ إمام معْدَلة وقصْد ... وحزم حين تحضرك الأمورُ
أخوك خليفة الله ابن حرْبٍ ... وأنت وزيره، نعم الوزير
بأمر الله منصور مُعَانٌ ... إذا جار الرّعية لا تَجُورُ
يدِرّ على يديكَ لما أرادوا ... من الدنيا لهم حلَبٌ غزير
وتَقْسم بالسواء فلا غنىّ ... لضَيْم يشتكيكَ ولا فقير[1]

وإنك لتعجب، كيف لزياد بأن يكون منصورا بأمر الله، عادلا لا يجور، يقسم بالسواء ويحمده الفقير قبل الغنى !! كل تلك سمات تقترب بمثل هذا المديح من طبيعة الشعر السياسى الذى يجعل الغاية قبل الوسيلة، ويتذرع فى تحسين صورة الممدوح بشتى ألوان التمويه، وإن كان الإنصاف يقتضينا أن نذكر أن بعض فلذات الشعر الأموى فى هذه السبيل لم تكن تخلو من صدق وموضوعية، وأقرب الأمثلة على ذلك مدحة كثيرّ لعمر بن عبد العزيز، وصحيح أن كثيرًا كان يتشيع، ولكننا نعلم أن بعض شعراء الشيعة، كالكميت وكثيّر، كانوا يضطرون أحيانا إلى مدح بنى أمية، وقد تجود هذه المدائح، وقد تلتزم من الصدق بمثل ما التزمت به مدحة كثيّر المشار إليها، وفيها يخاطب عمر بن عبد العزيز بقوله:

وصدّقْتَ بالفعل المقال مع الذى ... أتيتَ فأمْسى راضيا كلُّ مسلم
تكلمتَ بالحق المبين وإنما ... تَبَيَّنُ آياتُ الهدى بالتكلّم
وقد لبستْ لُبْس الهَلُوك ثيابها ... تراءَى لك الدنيا بكفّ ومعصم
وتومض أحيانا بعين مريضة ... وتبْسم عن مثل الجمان المنظّم
فأعرضْتَ عنها مشمئزًا كأنما ... سقتْك مَدُوفًا من سِمَام وعَلْقَم
تركْتَ الذى يفنى وإن كان مونقا ... وآثرت ما يبقى برأىٍ مصمِّم[2]

---

(١) تاريخ الطبرى - طبعة دار المعارف - جـ٥ - ص٢٢٣-٢٢٤.
(٢) ديوان كثيّر - ص٣٣٤-٣٣٥.

ويمكن القول إنه إذا كانت جرعة السياسة فى الشعر الأموى أكثر، فإن جرعة السمات الدينية فى شعر الشيعة أبلغ، ولأن السياسة بطبيعتها مُرَاوِغة، تحكّم المصلحة أكثر من العاطفة، كان حظ الشعر الشيعى من العاطفة أوضح، ومن شبوب المشاعر أوفر، على حين بدت صفحة الشعر الأموى ملساء باردة، فيها من حيادية النظرة أكثر مما فيها من اتّقاد العاطفة، وانعكس هذا على مستوى التعبير عند كل من الفريقين، فمال الشعر الأموى إلى التقرير والإشادة المباشرة بمآثر بنى أمية ومظاهر سلطانهم، على حين ترقرق الشعر الشيعى بماء الحزن وغلبة طابع البكاء كلما تذكر مبدعه شهيدا من شهدائهم أو إماما من أئمتهم، وإذ يلفتك إلى شعر الشيعة ما فيه من ملامح الاحتجاج العقلية والمنقولة من نصوص الكتاب والسنة، يقابلك من الشعر الأموى ذلك التعويل البالغ على سياسة الأمر الواقع واتخاذها ذريعة للحكم لهم ولشيوخهم من بنى أمية، وهى ذريعة لا يكاد يعوّل عليها إلاّ من يفتقد الذرائع، وتغلق دونه أبواب البرهان.

* * *

أما شعر الخوارج فربما كان مختلفا بعض الاختلاف عما سلفت الإشارة إليه، ونلحظ فيه - لأول وهلة - صيغة قوْلية تتسم بالبساطة والعفوية، وتفصح عن توهّج المشاعر الدينية أكثر مما تفصح عن عمق التفكير وفلسفية النظر، وقد لمس دارسوه نحوًا من هذه الحقيقة حين لم يجدوا فيه «جدالا أو دفاعا بالحجج والبراهين، بل نغما دينيا قويا فى إيمانه..»، فإذا كان دور تفسير هذه التلقائية فى التعبير عن الشعور الدينى، والبساطة فى معالجة مواطن المفارقة بينهم وبين معارضيهم، كان التفسير المطروح «أن انشغالهم بجهادهم الحربى العنيف وباضطهاد الحاكمين لهم، وخاصة فى النصف الأول من عصر بنى أمية، هو الذى صرفهم عن بحث هذه المسائل والتفكير فيها باطمئنان وفى سعة من الوقت، وإن يكن من المرجح أيضا أن هذا يرجع فى كثير إلى طبيعتهم نفسها، فهم يمثلون ذكاء العرب أصدق تمثيل: لمحات قوية خاطفة من قوة التفكير، ولكنها لمحات، لا موجات متصلة مرتبط بعضها بالبعض، لقد كانوا هم الذين فتحوا فى عصر متقدم بابا كان لابد من فتحه للعقل الإسلامى، وهو باب الفقه والفلسفة الدينية، فبرهنوا بذلك على قوة من التفكير تسبق أوانها لجدّتها، ولكنهم عجزوا أن يكونوا فرسان هذا الميدان بعد أن فتحوه»[1].

من ثم كان ما نلمسه فى إبداعهم الشعرى من تدفق العاطفة الدينية وبساطة المشاعر المتحنثة، مع جهارة فى التعبير عن هذه وتلك. والذى يقرأ أو يلمح الصورة التى يرسمها شعراؤهم للمؤمن الحق يرى من وهج الحنين إلى نعيم الله، ووقدة الخوف من عذابه، ما تكاد به

---

(١) د. سهير القلماوى: أدب الخوارج فى العصر الأموى - القاهرة١٩٤٥ - ص٣٢-٤٣.

القلوب تقفز من الصدور رغبا ورهبا. يقول «الطرمّاح» ناعتا أنداده من الخوارج بالتقى والاجتماع على هدى الله، ثم إذا فارقوا دنياهم فارقوها إلى وعد من الله لا يتأجل ولا يتخلف:

عصـــائبُ مِنْ شَتَّى يؤلّف بينهم ... هُدَى الله نزّالـون عند المـواقف
إذا فارقوا دنياهُمُ فارقـوا الأذَى ... وصاروا إلى مَوْعود ما فى المصاحِفِ

والخروج - فى نظر الشاعر الخارجى - فوز يفوق كل فوز، لأنه فوزينجى من النار ويفضى إلى الجنة، ولا ينجو من روعات النار إلا من كان فى مثل حالة «الشراة»، إنابة بالقلب، وإخلاصا فى العمل، وسعادة يكتبها له الله من قبل مولده:

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أَفُزْ فوزة تُنْجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلّا المنيب بقلْب المخْلص الشارى
أو الذى سبقَتْ من قبل مَوْلده ... له السعادة من خلاّقها البارى[1]

والشخصية الخارجية - كما يصورها شعرهم - شخصية أرقة فى طاعة الله، راكعة ضارعة، تتدفق حنينا وفرقا من خشية الله حتى لتتوثب القلوب من مكامنها:

لله درّ الـشُّـراة إنّـهـمُ ... إذَا الكرى مال بالطُّلَا أرِقوا
يـرجّـعـون الحـنيـن آونـةً ... وإنْ عَلَا ساعـةً بهمْ شهقوا
خـوفًـا تبيتُ القلوبُ واجفـةً ... تكاد عنها الصـدور تنْفلق[2]

وهى شخصية تلوذ بجماعتها وتحرص على معتقدها، لأن فيه النجاة من عذاب النار:

كيف أُرَجّى الحيـاة بَعْـدهمُ ... وقد قَضَى مُؤْنسِىَّ فانـطلقوا
قـوم شِحـاح على اعتقـادِهمُ ... بالفوز مما يُخَافُ قد وثِقُوا[3]

ومثلما يبدو فى شعرهم ذلك التدفق فى العاطفة الدينية، والترغيب فى الجنة والترهيب من النار، والرقة خشية من الله، يتجلى فيه النزوع إلى التمرد على الطغيان والحض على الجهاد والشجاعة فى إنكار الذات والتضحية بالنفس فى سبيل العقيدة؛ يقول عمران بن حطان:

---

(١) روعات النار: أهوالها، الشارى: وصف للخارجى، لأنه يبيع نفسه لخالقه سبحانه - والنص من كتاب: الطرماح بن حكيم الطائى - تأليف عزمى الصالحى - بغداد سنة ١٩٧١ - ص ١٢٤.
(٢) الشراة: الخوارج. الكرى: النعاس، الطُّلا: الأعناق، واجفة: مضطربة.
والأبيات فى المرجع السابق - ص ١٢٤.
(٣) السابق: نفس الصفحة.

لقد زاد الحياة إلىّ بُغْضًا ... وحُبًّا للخروج أبو بلال
أُحَاذر أن أموت على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذُرَا العَوالى
ولوْ أنىّ علمتُ بأن حتفى ... كحتْفِ أبى بلالٍ لم أُبال
فمنْ يكُ همّه الدنيا فإنّى ... لها والله ربّ البيت قالى[1]

وأبو بلال المذكور فى هذه الأبيات هو أبو بلال مرداس، وكان زعيما من زعمائهم، وقتل فى بعض المعارك وهو يقاتل مع أصحابه، فظل الخارجيون يقتدون به حتى بعد مصرعه. وإذا كانت هذه المعانى وأمثالها مما تتميز به القصيدة الخارجية موضوعا ومضمونا، فإن لهذه القصيدة من السمات الفنية والأسلوبية ما يجعلها ذات ملامح خاصة فى الشعر الأموى.

فالشعر الخارجى ينأى عن الإسراف فى المديح، والمبالغة فى التذلل الممجوج، وإراقة ماء الوجه على أعتاب الخلفاء والأمراء، بل إن شاعرهم - عمران بن حطان - يستخف صراحة بأولئك الشعراء الذين يمدحون ويتملقون، وينظمون ويتزلفون، وهو لا يرى الثناء ذا وجه إلاّ لله سبحانه:

أيها المادحُ العبَادَ ليُعْطَى ... إنّ لله ما بِأيْدِى العباد
فاسأل الله ما طلبْتَ إليهمْ ... وارْجُ فضْلَ المقسِّم العوّاد
لا تَقُلْ فى الجوادِ ما ليس فيه ... وتسمِّى البخيل باسْم الجوادِ[2]

وإذن قد توارت فى الشعر الخارجى فنون كان لها ذيوع عند سواهم، على حين احتلت مكان الصدارة فنون أخرى كشعر الزهد وشعر الجهاد والحض على الثورة.

كذلك تتّسم القصيدة الخارجية بوحدة الخواطر الشعرية وانسجامها فى الكثير الغالب من أحوالها، وأحيانا كانت تضيف إلى ذلك اطّراح المقدمات الغزلية والمداخل الطللية، نظرًا لأن شعراءهم كانوا مهمومين بأمر واحد يكرثهم ويشغل تفكيرهم، وهو القضية التى نذروا أنفسهم لها، وقصروا جهدهم عليها، فلم يكن لديهم - إذن - من الهواجس الشعرية ما ينفقونه فى تمهيد يرونه غير ضرورى، أو مقدمة تبدو - من وجهة نظرهم - عبثية أو فاقدة المغزى.

ويظهر أن تلقائية التفكير وقرب المعين الثقافى قد انعكست على شعر الخارجيين أسلوبًا

---

(١) الكامل للمبرد - جـ٣ - ص ١٦٨، وعمران بن حطان قائل هذه الأبيات يعتبر من أشهر شعراء الخوارج وزعيم من زعماء الصفرية - توفى سنة ٨٤هـ.
(٢) الطرماح بن حكيم الطائى - مرجع سابق - ص ١٣٨.

ولغة، كما انعكست معنى وموضوعًا، ومن ثم نلمح فى أساليبهم الشعرية شيئًا من البداوة والميل إلى الغريب والجنوح إلى وعورة العبارة، بل إن أحد أعلامهم، وهو الطرمّاح بن حكيم، يعتبر من أكثر شعراء العصر الأموى تتبعا لغريب اللغة، وطلبا لعويصها، واستعمالا لشاذها، ولعل غرابة شعره ترجع إلى محاولته محاكاة شعراء الجاهلية، ثم تأثير بيئة الكوفة وسوادها عليه، وقد كانت هذه الغرابة فى انتقاء وحدات المعجم الشعرى ورصفها موضع ملاحظة من معاصريه ومن تلاهم، حتى ليحكى الشاعر الراجز رؤبة بن العجاج أن الكميت والطرماح «كانا يسألاننى عن الغريب، ثم أجده بعد ذلك فى أشعارهما»، ونحسب أن من كان فى سخاء الملكة اللغوية على نحو ما كان الكميت أو الطرماح غير محتاج إلى أن يسأل «رؤبة» عن غريب اللغة، وما دفعه إلى ذلك إلا اعتقاده أن الشاعرية مرهونة بوعورة العبارة وأن حظ الرجلين من ذلك لم يكن يقل كثيرًا عن حظه.

ثم نضيف إلى ذلك أن تأثير القرآن الكريم ومستوى فصاحته الأسلوبية وغنى مفرداته ونقاء وحداته التعبيرية – كل ذلك قد تجلى فى تعبيرات قوم حفظوه واتخذوا منه معينا بيانيا لا ينفد له مدد ولا ينضب له قرار، وحتى فى تلك الحالات التى لم يكن اقتباسهم فيها من البيان القرآنى اقتباسا صريحا، نرى هذا البيان يترقرق عبر أساليبهم، ويتجلى فى تضاعيف السياق اللغوى تجليا غير منظور، ولكنه محسوس؛ تأمل قول شاعرهم:

تَرَكَ الدهرُ أهلَه شُعَبًا فاستمرّتْ مِنْ دُونهم عُقَدُهْ
وكذاك الزمان يَطْرُد بالناس إلى اليوم يومُه وغَدُهْ
لا يُلْبِثَانِ باختلافهما المرء وإن طال فيهما أمدُهْ
كل حىّ مُسْتكملٌ عُدّةَ العُمْر ومُودٍ إذا انقضَى عَدَدُهْ
عجبًا ما عجبْتُ للجامع المالَ يُباهى به ويرْتَفِدُهْ
ويُضيع الذى يصيّرهُ الله إليه فليس يعتقدهْ
يوم يُؤْتَى به وخَصْماهُ وسْط الجنّ والإنْس رِجْلُهُ ويَدُهْ
خاشعَ الصوت ليس ينْفعُه ثَمَّ أمانيُّه ولا لَدَدُه
إنما الناس مثْلُ نابتة الزرع متى يأْنِ يأْتِ محتصِدُهْ[1]

فمن الواضح أننا من هذه الأبيات بإزاء ظاهرتين لغويتين لا يصح أن يغفل عنهما نظر، أولاهما تتمثل فى تلك المداميك التعبيرية التى لم يرنّقها كدر الابتذال: الدهر الذى يترك أهله

(١) الأبيات للطرماح بن حكيم – المرجع السابق – ص ١٢٩ – ١٣٠.

شعبا، الحى المستكمل عدة العمر، المودى إذا انقضى عدده، الحريص الذى «يَرْتفد» المال، وغير ذلك، وثانيتها تتجلى فى تفكير الشاعر بمعانى القرآن الكريم، حين يتذكر اليوم والغد اللذين «لا يُلبثان الإنسان»، وإن طال أجله فى الحياة، وهذا الإنسان نفسه هو الذى يؤتى به يوم القيامة «وخصماه رجْله ويده»، وحينئذ لا تنفعه «أمانيه» ولا «لدده»، وكأننا من هذه وتلك نستمع إلى أصداء البيان القرآنى فى قوله تعالى: ﴿يوم تَشْهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون..﴾[1]، أو قوله سبحانه: ﴿يوم لا يَنْفع مال ولا بنون، إلّا من أتَى الله بقلب سليم..﴾[2]، وفى كل الحالات يتجلى واضحًا تأثر شعراء هذه الطائفة، فى أساليبهم وطرق صياغتهم ومعجمهم الشعرى بمذخور ما حفظوه من كتاب الله، وما أفادوه من معانيه وتراكيبه.

شعر السياسة القبلية:

وبهذا الضرب من الشعر السياسى الذى كان يفرزه الصراع بين الطوائف الدينية والأحزاب السياسية، يتصل لون آخر من التعبير المنظوم جعل غايته تبنّى سياسة القبيلة والدفاع عنها وتأمين مصالحها، وصحيح أن ما أسلفناه من شعر سياسى كان يمتزج بالنزعات القبلية نوعا من الامتزاج، ولكن ما نتوقف عنده الآن لا يقنع بمجرد المشاعر القبلية بمفهومها التقليدى، بل يجسد هذه المشاعر من خلال ارتطامها بالبنيات الأساسية للدولة الإسلامية، ثم يشير إلى آثار هذا الارتطام متمثلة فى جور هذا العامل أو ذاك على مصالح القبيلة، وموقف هذا الوالى أو ذاك من هذه القبيلة أو تلك، وهى ظواهر فى العلاقات الاجتماعية لم تكن لتوجد لولا ما أرسته دولة الخلافة من مؤسسات سياسية وإدارية ومالية كان لابد أن تتوافق أو تتناقض مع طبيعة التقاليد القبلية، فيحدث من هذا التوافق أو التناقض ما يدفع بعض القبائل إلى مواكبة هذه المؤسسات بالتأييد، وما يدفع بعضها الآخر إلى مجاهرتهاابالشكوى والتنديد، كما حدث حين عهد هشام بن عبد الملك بولاية العراق إلى خالد القسرى، وكان هذا معروفا بعصبيته الشديدة لليمنية ضد المضرية، فاضطهد تميما وقتل نفرًا من أعلامها، ومن ثم نرى الفرزدق يهجوه هجاءً مرًّا، بل ويلمز بالإضافة إليه سيده هشام بن عبد الملك، لأنه هو الذى أعانه على هذا البغى حين حكّمه فى مصائر العراق.

وقريب من موقف الفرزدق هذا فى الدفاع عن تميم ومصالحها فى مواجهة خالد القسرى وولىّ نعمته هشام بن عبد الملك، موقف الراعى النميرى من عبد الملك بن مروان وعمّاله وجباة ضرائبه، ممن كان يبعث بهم إلى القبائل بين الحين والآخر، فيسومونهم سوء المعاملة،

---

(١) الآية رقم ٢٤ من سورة النور.

(٢) الآيتان رقم ٨٨، ٨٩ من سورة الشعراء.

وينتزعون من أموالهم وحقوقهم ما يجعلهم يصرخون - على لسان الراعى - بالشكوى المريرة إلى الخليفة الأموى:

أَزْرَى بـأمـوالنـا قـومٌ أمـرْتَهُمُ ... بالعدل فينا فَمَا أَبْقَوْا وما قَصَدُوا
نُعْطِى الزكاةَ فما يَرْضَى خطيبُهُمُ ... حتّى نُضَاعِف أضْعافًا لها عُدَدُ
أمّا الفقير الذى كانتْ حَلُوبَتُـهُ ... وَفْقَ العِيال، فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ
واخْتَلَّ ذُو المال والمُثْرُون قَدْ بقِيَتْ ... على التّلاتِل من أمـوالهم عُقَدُ
فـإنْ رفَعْتَ بِهِمْ رأْسًـا نَعَشْتَهُمُ ... وإنْ لَقُوا مِثْلَهَا فى قابِلٍ فَسَدُوا[1]

إن مثل هذه الوثيقة تكشف عن طبيعة العلاقة بين الرعية وعدد من عمال الدواوين لم يرعوْا فى هذه العلاقة حرمة أو ذماما، فهم لا يقنعون بأخذ الزكاة كما قنن الشرع وفرض الإسلام، بل يضاعفونها مرّات ذوات عدد، وهم لا يتركون الفقير بما يسدّ عنه غائلة فقره، بل يستلبونه ما تملك يمينه حتى ولو لم يملك سوى «حلوبة» واحدة. أكثر من هذا ترى هؤلاء الجباة ينتزعون من الأغنياء بالحق والباطل حتى لا يكاد يبقى لهؤلاء من أموالهم سوى النزر اليسير، وهكذا اختلّ الفريقان على سواء: الفقراء والأغنياء، فلم يبق إلا أن يمد لهم الخليفة يده كى يستنقذهم مما هم فيه من بلاء، وإلا فإنهم - إذا استمروا على حالهم - موشكون على الهلاك التام فيما يقبل من أعوام.

ويتميز شعر السياسة القبلية لدى الراعى النميرى بغير قليل من مميزات البنية الدرامية، نعنى أن يلجأ الشاعر إلى صياغة شكواه عبر متواليات من المشاهد والصور تجسّد القضية بأجلى مما تعبر عنها الصيغ والأقوال المباشرة؛ ففى لاميته المشهورة تراه يلوذ بذلك الخطاب الضارع الذى يقدم به نفسه وقومه إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان:

أخليفـة الرحمـٰنِ، إنّـا مَعْشَرٌ ... حنفـاءُ نسجد بُكْـرة وأصيـلا
عَـرَبٌ، نرى لله فى أمـوالنا ... حقّ الـزكـاة منـزّلا تنـزيـلا

فتشعر أنك بإزاء شاعر سياسى - قبلى لا تنقصه اللباقة ولا يعوزه الدهاء، لأن إضافة «الخليفة» «للرحمـٰن» يشعر بعظم المسئولية الملقاة على عاتق الحاكم، ويدفع الخليفة إلى سرعة التحقيق فى مصداقية الشكاية التى سيتقدم بها الشاعر، فإذا أضيف إلى ذلك ما يصف به الشاعر

---

(١) الخطاب فى البيت الأول موجه إلى عبد الملك بن مروان، والحلوبة: الناقة التى تحلب، وفق العيال: أى أن لبنها قدر كفاية العيال، السبد: الشعر، وقيل: الوبر، التلاتل: الشدائد، العقد: البقايا القليلة. وانظر النموذج ومناسبته فى: طبقات فحول الشعراء -الجزء الأول- تحقيق محمود شاكر - ص٥١١.

قومه من أنهم حنفاء مسلمون ناسكون، بل إنهم عرب خلّص ليسوا من الموالى أو الأعراب الذين يمنعون الزكاة أو يماطلون فى أدائها - إذا أضيف هذا إلى ذاك تبين أن الشاعر يتذرع بكل ما من شأنه أن يستدرّ عطف الخليفة على قضيته التى يعرضها على هذا النحو المؤثر:

إنّ السُّعاة عَصَوْك حين بَعَثْتَهُمْ ... وأتوْا دَوَاهِيَ-لو علْمتَ-وغُولا[١]
أخَذُوا العريف فقطّعوا حَيْزُومَهُ ... بـالأَصْبَحِيّـة قـائمـا مَغْلُولاَ[٢]
حتّى إذا لم يتـركُوا لعـظامه ... لحْمًـا ولا لفؤاده معقـولا[٣]
جاءوا بصكِّهِمُو وأَحْدَبَ أسْأَرَتْ ... منه السياطُ يَـراعَةً إجْفِيـلاَ[٤]
نسىَ الأمـانَةَ مِنْ مخافـة لُقَّحٍ ... شُمْسٍ تَرَكْنَ بَضِيعَهُ مَجْدُولاَ[٥]
أخَذوا حَمُولَتَـهُ وأَصْبَح قـاعدًا ... لا يستطيع عن الدّيار حَوِيلاَ[٦]
يـدعـو أميـر المؤمنين وَدُونَـهُ ... خَرْقٌ تجرّ به الريـاحُ ذُيُولا[٧]
كهُـدَاهِدٍ كَسَـر الرُّمـاة جَنَاحَـهُ ... يدعوُ بقارعة الطريق هديـلا[٨]

وهذا بالتحديد ما دعوناه بالبنية الدرامية فى عرض القضية السياسية - القبلية؛ لأن الشاعر حرص فى هذا العرض على تصوير ما كان من عسف عمال الزكاة فى جمعها ممن لا تجب عليه، والقسوة فى معاملة من يطالبونه بها، حتى كانوا يأتون بشيخ القبيلة مقيدًا مغلولا وقد مزقت صدره السياط، ولم يتركوا فوق عظامه لحما، ولا داخل رأسه عقلا، ثم يأمرونه بالتوقيع على صكوك ما أنزل الله بها من سلطان، ولكنها تضفى على جورهم مشروعية، وعلى ظلمهم مظهر العدل، وماذا ينتظر من عرفاء القبائل وظهورهم تستقبل وقع السياط الأليمة فينسون تحت سعيرها ما فى أعناقهم من أمانة تجاه قبائلهم، ثم يضطرون فى نهاية الأمر إلى

---

(١) السعاة: جباة الصدقات لبيت المال، غول: مهلكة، ويعنى بها المصائب.

(٢) العريف: قيّم القبيلة الناهض بشئونها، الحيزوم: الصدر، الأصبحية: السياط الأصبحية، نسبة إلى صانعها المسمى «ذا أصبح» الحميرى، الغل: القيد.

(٣) المعقول: العقل.

(٤) الصكّ: الكتاب، فارسى معرب، الأحدب: وصف للعريف، أسأرت: أبقت، اليراعة: القصبة المجوفة، الإجفيل: الجبان.

(٥) اللقح: السياط، مفردها لاقح، شمس: شداد، مفردها شموس، البضيع: اللحم، مجدولا: ملقى على الأرض.

(٦) الحمولة: المتاع والراحلة، لا يستطيع حويلا: لا يستطيع عنها حولا.

(٧) الخرق: الصحراء، ذيول الرياح: ما تتركه فى الرمال من آثار.

(٨) هداهد: تصغير هدهد.

التوقيع للسعاة على صكوكهم الزائفة خشية ورهبة، بل ما حيلة هؤلاء العرفاء وكل منهم فى ضعفه واستسلامه وصراخه مستغيثا باسم أمير المؤمنين يشبه هدهدًا كسير الجناح يخضّل الألم هديله المحزون؟!!.

ومن سمات شعر السياسة القبلية كما تمثله قصائد الراعى النميرى التوسّل إلى تجسيد المظلمة بالمبالغة فى تصوير مذلة المظلومين وتصوير ما هم فيه من هوان، ومن آيات ذلك أن الراعى لا يقنع بعرض حال «العريف» وتوقيعه على الصكوك الزائفة، بل يضيف إلى ذلك تصوير حال قومه بعامة، وقد تبعثرت مواشيهم بددًا، وباتوا مطرودين ينتقلون أمام ملاحقة الولاة لهم من مكان إلى مكان، وكأنهم مطلوبون بدماء قتيل، أو كأن ليس لهم من شريعة الإسلام حرمة أو ذمام:

أخليفة الرحمٰن إنّ عشيرتى ... أمسى سَوَامُهُم عَرِينَ فُلُولاَ[١]
قوم على الإسلام لَمّا يَتْرُكُوا ... مَاعُونَهم ويضيّعوا التهليلا[٢]
قَطَعُوا اليمامة يُطْردون كأنّهم ... قوم أصابوا - ظالمين - قتيلا
وأتاهم «يَحْيَى» فشَدّ عليهمُ ... عَقْدًا يراه المسلمون ثقيلاً[٣]
فتركْتُ قَوْمِى يَقْسمون أُمُورَهُمْ ... أإليك؟ أَمْ يتربصون قليلا؟[٤]

وتصوير حال قوم الشاعر وهم على هذا النحو من الضياع والتشرد، تتقاذفهم فجاج الأرض، ويطاردهم السعاة وكأنهم يطالبونهم بدماء عليهم، هذا التصوير تواكبه وتتلوه صرخة ضارعة يتوجه بها الشاعر إلى أمير المؤمنين، تناشده رفع الظلم، وترجوه الغوث، وتسأله التدخل لرفع إصر الولاة عن كواهل الرعية:

أنتَ الخليفةُ، عدْلُه ونَوَالُه ... وإذا أردت لظالم تنكيلاَ[٥]
فارفَعْ مظالم عيَّلَتْ أبناءنا ... عنّا، وأَنْقِذْ شِلْوَنا المأكُولا[٦]

---

(١) السوام: الماشية، عرين: تجردن من الرجال، فلولا: متفرقة.
(٢) المراد بالبيت أنهم مسلمون صحيحو الإسلام لم يتركوا فرضا ولم يضيعوا واجبا.
(٣) ربما كان «يحيى» المشار إليه من جباة الأموال، شد عليهم عقدًا: فرض عليهم من الأموال ما يثقل الوفاء به.
(٤) يقسمون أمورهم: يتدبرون أمورهم، أإليك: هل يلجأون إليك، أم يتربصون: أم ينتظرون.
(٥) النوال: العطاء، يريد: أنت الخليفة الكامل عدلا وكرما. التنكيل: العقاب الرادع.
(٦) عيّلت أبناءنا: تركتهم فى حاجة إلى من يعولهم. الشلو: العضو.

إنّ الـذين أمرتَهُمْ أن يَعْـدِلوا لم يَفْعَلُوا مِمّـا أَمَرتَ فتيـلا[١]

ولعلّه ممّا لا يحتاج إلى تنبيه أنّ تشبيه عريف القبيلة بالهدهد المكسور الجناح، ثم تصوير ما هم فيه من سوء الحال «بالشلو المأكول»، والتعبير عن استهانة العمال بأوامر الخليفة بأنهم «لم يفعلوا مما أمر فتيلا» – هذه الصور وأمثالها توحى بمستوى الخيال فى بناء الهيكل الدرامى للقصيدة السياسية – القبلية، وبدون هذا المستوى الخيالى لم يكن هذا النوع من القصائد ليبلغ ما بلغه من الروعة والتأثير؛ لأن غايات الصورة الشعرية لا تقتصر – فقط – على مجرد جلاء إحساس الشاعر أو تقرير فكرته، بل إنها – سابقة على الفكرة والشعور – «تخلقها خلقا»، فيما يحسب بعض النقاد[٢]. وتعبيرهم بالخلق هنا مقصود للإشعار بأن الصورة ليست رصدًا لحالة ماضية، بقدر ما هى إبداع لحالة مستقبلة، وفى ذلك – على وجه التحديد – يكمن سرّ ما نلقاه فى شعر السياسة القبلية من صدق تعبيرى، مبعثه ذلك الشجن الحزين الذى يغلف ألم الشاعر لقومه، وأساه لمصيرهم، ونواحه من أجل ما فعله العمال والسعاة بهم.

---

(١) الفتيل: الخيط الرقيق فى شق النواة، ويضرب مثلا للشىء التافه الحقير. وانظر اللامية بكاملها فى: ديوان الراعى النميرى – طبعة بغداد – ص١٤٣ – ١٤٧.

(٢) التعبير من عند «هولم» – انظر W.Y. Tindall, The Literary Symbol, P. 102.